مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 10 عدد: 3 السنة: 2021
ص: 75 - 87 — E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الأنثى والقلم... أي عهد؟
(قراءة في كتاب: المرأة واللغة لعبد الله الغذامي)

The Female and the Pen… Wich Alliance ? (Reading in the Book: Woman and Language by Abdullah Al-Ghadami

سماحية خضار *
Smahia Khaddar
جامعة عبد الحميد بن باديس- مستغانم (الجزائر)
University of Mostaghanem- Algeria
smahia.khaddar@univ-mosta.dz

تاريخ الإرسال:2020/11/06	تاريخ القبول:2021/06/04	تاريخ النشر: 2021/09/02

ملخص البحث

ظلّت الكتابة على مدى قرون أرضا مستعمرة من طرف الرجل، يحتكر القلم أداة له ليمارس سيادته على النصّ، ويبسط سلطان فحولته على المصطلح والمعنى؛ إلى أن خرجت المرأة عمليا من مرحلة الحكي إلى فعل الكتابة، تتكلم وتُفصح وتُشهر لصوتها وتعبر عن حقيقتها وصفاتها بنفسها، فتحوّلت بهذا من مجرّد موضوع لغوي إلى ذات فاعلة؛ ما أضاف صوتا جديدا ومختلفا إلى اللغة، صوت فتح بابا ظلّ موصدا لزمن غير يسير.

الكلمات المفتاح : مرأة، لغة، كتابة، فحولة، رجل، غذامي

Abstract :
For centuries, writing remained a colonial land by the man, the pen monopolized a tool for him to exercise his supremacy over the text, and simplified his authority and transformed him over the term and the meaning; Its truth and its characteristics, by itself, has thus been transformed from merely a linguistic subject to an active subject; what has added a new and different voice to the language, the voice of opening a door that has been a shutter for an unforgettable time.
Keywords: Woman, Language, Writing, Virility, Man, Al Ghadami

* سماحية خضار. smahia.khaddar@univ-mosta.dz

أولا: تمهيد:

لم تدخل المرأة إلى عالم الكتابة سيّدة للنصّ إذ إن السيادة النصية محتكر ذكوري قديم؛ وهذا ما جعلها تطلب عبقرية الرجل لأنّها لا تملك نموذجا يحتذى به يسمى عبقرية المرأة في الكتابة.

فهل تمّ تذكير اللغة نهائيا؟ هل انحازت اللغة إلى الرجل؟ أم أنّ هناك مجالا لتأنيثها؟ هل أصبح الاسترجال طريق المرأة الأوحد في فعل الكتابة؟ أم أنّ هناك حلولا تختبئ، وما على المرأة إلّا أن تنقّب عنها في ضمير اللغة؟

هذه أهمّ الأسئلة التي يطرحها الناقد عبد الله الغذامي من خلال مؤلَّفه: "المرأة واللغة" حيث يروم بحثنا تشريحه وسبر أغواره للكشف عن رأي ناقد مهم في الساحة العربية النقدية في علاقة المرأة بالكتابة.

ثانيا: عن كتاب المرأة واللغة:

جاء الكتاب في مائتين وخمسين صفحة مقسمة منهجيا إلى ثمانية فصول معنونة نسبة إلى محتواها كالآتي:

الفصل الأول: الأصل التذكير...؟

الفصل الثاني: تدوين الأنوثة

الفصل الثالث: الجسد بوصفه قيمة ثقافية

الفصل الرابع: احتلال اللغة، غزو مدينة الرجال

الفصل الخامس: من ليل الحكي إلى نهار اللغة "تأنيث المكان"

الفصل السادس: المرأة ضد أنوثتها

الفصل السابع: الخراب الجميل: تسترد اللغة أنوثتها

الفصل الثامن: تأنيث الذاكرة

افتتح عبد الله الغذامي مؤلفه بمقولة عبد الحميد الكاتب؛ الأستاذ الأول للكتابة الفنية عند العرب "خير الكلام ما كان لفظه فحلا ومعناه بِكرا" حيث يشير القول إلى القسمة الثقافية التي أرساها التاريخ في اللغة بين الرجل الذي استأثر على قوة اللفظ، وبين المرأة التي جُعل نصيبها في تجسيدها للمعنى، هذا المعنى المعروف عنه أنّه ضعيف خاضع لقوة اللفظ وتوجيهه؛ إذ لا يمكنه مهما عظم أن يقوم بذاته دون اللفظ.

ينقلنا صاحب الكتاب بعدها إلى قسمة ثانية – تتفرع عنها – مفادها أنّ الكتابة للرجل وللمرأة الكلام، ما يعني أنّ الرجل استأثر بصناعة وإنتاج مسائل اللغة ونشأة التاريخ إذ أحكم سيطرته على الفكر اللغوي والثقافي ليقول في هذا « لو تيسّر للمرأة أن تكتب تاريخ الزمان والأحداث وتولّت بنفسها صياغة التاريخ، ولم يكن ذلك حكرا على الرجل وحده؛ إذن لكنا قرأنا تاريخا مختلفا عن فاعلات ومؤثرات وصانعات للأحداث، وهنا ستكون الأنوثة قيمة إيجابية مثل الفحولة تماما » [1]، ثم يضيف معترفا بإقصاء المرأة من فعل الكتابة وغيابها التام عنها وبالتالي غياب بصمتها في تخليد التاريخ إذ يقول « غير أنّ الذي حدث هو غياب الأنوثة عن التاريخ لأنّها غابت عن اللغة وكتابة الثقافة، وتفرّدت الفحولة باللغة فجاء الزمن مكتوبا ومسجلا بالقلم المذكر واللفظ الفحل، وظلّ الحال على ذلك المنوال، حتى جاء زمن امتلكت فيه المرأة يد الكتابة، وكتبت » [2] ليتساءل في الأخير بعدما امتلكت المرأة زمام القلم واسترجعت بعض حقها في فعل الكتابة قائلا: « فهل تراها تملك القدرة على تأنيث اللغة أو أنسنتها لتكون للجنسين معا؟ أم أنّ اللغة قد بلغت منها الفحولة مبلغا لا سبيل إلى مدافعته؟ » [3]

إنّه التساؤل الخطير الذي دفع بالمرأة إلى معركة أبدية لم تنته بعد عندما تصادمت في بداية طريقها مع الحواجز الثقافية الموروثة وآراء العلماء والفلاسفة من سقراط وأفلاطون إلى داروين ونيتشه إلى المعري والعقاد وشبنهور وغيرهم الذين طالما رأوا فيها جسدا لا عقلا، وعدّوها كائنا ناقصا؛ وهو ما أوكَل للرجل مهمة الإفصاح عن الحقيقة بما فيها حقيقة المرأة وصفاتها وحكاياتها. ثم ينتقل بنا سابحا في بحر علاقة المرأة بالكتابة في باقي صفحات مؤلَّفه من خلال ما ارتأينا من عناوين تخدم بحثنا كالتالي:

ثالثا: أ ذكر أم أنثى، جنس الأصل اللغوي؟

يأتي الغذامي في هذه المسألة بقول ابن جني عن التذكير والتأنيث في اللغة عندما قال أنّ « تذكير المؤنث واسع جدا لأنّه رد إلى الأصل » [4] إذ يعدّه تقليلا مجحفا من صفة جوهرية على اعتبار أنّها مجموعة من الدلائل والصفات وليست كيانا حرا وذاتا فاعلة؛ إنّه سلب صريح لحق المرأة الطبيعي في التأنيث وقد استدل على ذلك عندما جاء بمثال المرأة التي تدخل سوق العمل فتلقّب بالعضو، والمحرر، والأستاذ المحاضر فتلغى عنها صفة الأنوثة وتلحق بلقب الرجل!

ويدعم الغذامي موقفه من هذا الإجحاف بآراء أبرزها للكاتبة اللبنانية مي زيادة التي ترى أنّ: « موقف الدين بوصفه وحيا منزلا وبوصفه دين الفطرة يعطي المرأة حقها الطبيعي، ولكن الثقافة بوصفها صناعة بشرية ذكورية تبخس المرأة حقها ذاك، وتحيلها إلى كائن ثقافي مستلب، وهذا ما يجعل تاريخ المرأة

استشهادا طويلا » [5] إذ تشيد بدور الدين في إنصاف المرأة في اللغة، وكذا رأي المفكرة المصرية بنت الشاطئ التي تؤمن أنّ « مؤرخي الأدب تعمدوا طمس أدب المرأة العربية في عصورها الماضية وألقوا بآثارها في الظل » [6] وهو ما أسمته بالوأد العاطفي والاجتماعي.

وعلى الرغم من هذا الموقف فقد أخفقت كثير من الكاتبات في إخراج أنفسهن من دائرة التذكير في اللغة، والتحرر من قيودها التي طمست ملامح الأنثوية عن اللغة؛ حيث كتبت نوال السعداوي كتابا أسمته "الأنثى هي الأصل"؛ وكأنه رد على قول ابن جني الذي أوردناه سابقا بأن التذكير هو الأصل، لكنّها ودون أن تشعر فشلت عندما وظفت الضمير المذكر الذي يحيل إلى ذكورية الأصل اللغوي؛ حيث يصرح الغذامي أن المرأة الكاتبة لم تجد مهربا من صبّ أنوثتها في قالب المذكر لتقحم ذاتها في السياق الذكوري للغة، و«بهذا تكون مقولة الأنثى هي الأصل على لسان المرأة لتكون خطابا عائما على سطح اللغة، أما ضمير اللغة وباطنها فيظل رجلا فحلا » [7]، مما يجبرها على ارتضاء هامشيتها في اللغة، حيث مثّل على ذلك باعتراض نازك الملائكة على عنوان قصيدة الشاعر علي محمود طه: "هي وهو صفحات من حب" عندما رأت أنّ «الترتيب العربي أن يقول "هو وهي" لأنّ التقديم عندنا لضمير المذكر على ضمير المؤنث وما من ضرورة لتغيير هذا الأسلوب » [8].

فلطالما تحيّزت اللغة إلى الرجل عندما جعلت الفصاحة والأصالة التذكير أصلا والتأنيث فرعا ليس في العربية فقط بل حتى في اللغة الانجليزية كذلك التي ألغت المرأة إلغاء تاما وأدمجتها كملحق لفظي فشكلّ الرجل التكوين الأساس في الكلمات التي تدل على الأصل مثل: وو**[مان]**، هيو**[مان]**، **[مان]**كايند وغيرها.. ما منح الرجل المركزية، وجعل الهامش من نصيب المرأة.

ويُرجع الغذامي السبب في طرد المرأة من أحضان اللغة للثقافة التي سادت عقب تحول المجتمع من نظام الأمومة إلى نظام الأب بناء على نظرية باشوفن حيث تغير الزمن الذي سادت فيه القيم النسائية القائمة على علاقات الرحم والارتباط بالأرض والتصالح مع الطبيعة والرضى بالفطرة إلى نظام آخر ذي بصمة ذكورية صارمة فرضت قوانينها العقلانية وأشعلت نيران الحروب من أجل السيطرة وتحقيق المكاسب؛ حيث تجلى التفاوت الطبقي والتمييز الجنسي وتغليب الفكر الذهني على الحسي، وهو ما يجسد اختلاف التكوين الجسدي بين المرأة والرجل. [9] وعليه فقد تحولت المرأة إلى موضوع ثقافي لا فاعل لغوي يُدوِّن ويصف ويشهد الوقائع، فراح الرجل يكتب حكاياته وحكاياتها إذ بالغ في تضخيم جانبها الحسي على

حساب جانبها العقلي؛ فأحكم قبضته على معاقل اللغة والثقافة والعرف الاجتماعي وهمّش دور المرأة فيها.

بالإضافة إلى النظام الاقتصادي الرأسمالي * الذي لا يرى في المرأة غير بضاعة جسدية تثير إثارة الرجل حين وظّفها في ترويج سلعه بواسطة هذا الجسد؛ مما تناسب مع آراء العلماء الذين اتهموها بالنقص لينتهي بها الأمر أن تكون مجرد أداة رمزية للتوظيف والترميز، وحمولة دلالية تدور دائما حول مركز واحد: الرجل !

ويخلص الغذامي إلى حقيقة موقفه الذي يراه عين المنطق فيقول: « لن يكون من المعقول أن نتصور أنّ الأصل في اللغة هو التذكير... ولن يكون من المقبول أن نفترض أنّ الرجل وحده هو صانع اللغة وسيّدها منذ البدء، بل إنّ الطبيعي والأكثر معقولية هو أن يكون الجنس البشري بشكليه المؤنث والمذكر قد أسهما في إنتاج اللغة وتوظيفها » [10]؛ إذ يساوي بين الرجل والمرأة في حقهما الفطري، ويؤكّد بذلك أنّ غياب المرأة عن الكتابة وحضورها في الحكي في الزمن الأول كان نتيجة سياقات ثقافية فلسفية، تاريخية واجتماعية واقتصادية ساهمت في سلبها هذا الحق المشروع.

رابعا: المرأة بين زمن الحكي وزمن الكتابة:

يأتي الغذامي في هذا المقام بمقارنة لصورة المرأة الساردة بين مرحلتين مختلفتين تماما "مرحلة الحكي" و"مرحلة الكتابة" ؛ باعتبار الحكي آلية توظف المشاعر، قاصرة عن إدراك ذاتها وأبعادها لأنّها لا تبرح مكان وآذان سامعيها، فيما تعدّ الكتابة وعيا ينبع من إدراك شديد، ينفتح على اللحظة التاريخية، إذ على الرغم من توظيفها للإبداع الجمالي للغة غير أن ميزة تخليدها عبر الأجيال تضع الكاتب أمام مسؤولية عظيمة نحو الأجيال القارئة.

1) المرأة في مرحلة الحكي:

يصف الغذامي المرأة في هذه المرحلة بأنها « كانت بعيدة عن تحقيق موقعها الطبيعي ومازالت تتصرف وتحكي على أنّها كائن ثقافي مبرمج، برمجها الرجل لتكون الجارية الثرثارة التي تمتع سيّدها وتمنحه جسدها ودمها لتدوم نضارته ويدوم شبابه، إنّها لما تزل كائنا ثقافيا ذات صفات نمطية أسبغتها عليها الثقافة والتوارث العرفي مثل صفات الكيد والغدر والجهل والضعف » [11]، ومثّل على هذه المرحلة بالشخصية الأسطورية الشهيرة "شهرزاد" في كتاب "ألف ليلة وليلة"؛ هذه المرأة التي لم تكن تحكي وتتكلم

فحسب، بل كانت كذلك تواجه الرجل ومعه تواجه الموت من جهة، وتدافع عن قيمتها الأخلاقية والمعنوية من جهة ثانية، وتحاول أن تحمي بنات جنسها من بطش ملك كاره للنساء من جهة ثالثة.

فقد كانت المرأة تتكلم والرجل ينصت، فإذا ما سكتت تعلّق بصمتها يوما كاملا إلى أن تتكلم مرة أخرى لتمارس عليه سلطة اللغة وسلطان النص المحكي؛ لذا فإن الوقوف على صورة المرأة من خلال شهرزاد يعدّ وقوفا على زمن ثقافي وحضاري كامل.

ولكنّ الحكي وإن طمس دور المرأة في تدوين التاريخ والحضارة وأخفى بصمتها في مصنّفات اللغة والفكر غير أنّه كان إرهاصا مهّما للمرحلة التي سوف تبرز فيها المرأة كفاعل مواز لنشاط الرجل في الكتابة والإبداع وإن اختلف عنه كمّا وتميّز عنه موضوعا بحكم قصر التجربة وماعانته المرأة من اضطهادات سجّلها التاريخ البشري.

2) المرأة في مرحلة الكتابة:

المرأة تسترد حقها، وتسعى إلى تأنيث الضمير ولكن !

هل انحازت اللغة إلى الرجل؟ هل تمّ تذكير اللغة تذكيرا نهائيا... أم أنّ هناك مجالا للتأنيث؟

وعت المرأة منذ البدء أنّ الاقتراب من ممارسة الكتابة في حضرة الرجل هو بمثابة الرقص في « حقل ألغام » [12] موقوتة جاهزة أن تنفجر في أية لحظة لتكون المرأة ضحيتها الأولى والأخيرة، ولكنّها أصرّت مع هذا على استرداد حقّها وامتلاك ناصية الكتابة، ولكنّها تعثّرت في بداياتها بـ « قوة الذكورة التي فرضت نفسها على المرأة لدرجة أنّ النساء أنفسهن ساهمن في هذا التحويل المستمر باتجاه الذكورة » [13] ليأتي الغذامي مبررا موقفه هذا بتصريح لأحلام مستغانمي الذي تشير فيه إلى أنّها وجدت التحدث بلسان الرجل يسهّل عليها الكتابة ويساعدها على السرد ويجعلها تقول ما تعجز عن قوله كأنثى [14]، وكذا بمواقف مشابهة لأخريات أبرزهن هدى بركات التي « ترى أن شخصية الرجل تقدم لها حقلا أكثر اتساعا وتعقيدا مما تقدمه شخصية المرأة » [15] فتقول: « ما هو مطروح من أشكال الوعي والسلوك على الرجل العربي أصعب وأشمل مما هو مطلوب من المرأة... وبتعبير آخر: المرأة في مجتمعنا مكفوفة عن أن تكون أحد أبطال التشكيل الاجتماعي، فكيف تريدينني أن أخترع – روائيا– شخصية غير موجودة في الواقع » [16]

ولا يستغرب الغذامي كثيرا من موقف امرأة مثقفة روائية بحجم هدى بركات، ولا هو عجب أو نشاز في الثقافة، فنحن نلاحظ أنّ كثيرا من النساء ترى ذلك وتقول به منذ أن كتبت عائشة التيمورية بلهجة الرجل ولسانه، إلى ما هو قائم اليوم من اختيار المرأة طريق الاسترجال لكي تكون مبدعة ومثقفة

[17] ؛ إنّها في نظره أقصى حالات التماهي والاستلاب الذي ساهمت في تكريسه المرأة ضد نفسها، وحسب رأي عبد الكبير الخطيبي فإنّ « أقوى سيطرة – على مستوى المعرفة – هي التي يصل فيها المسيطَر عليه إلى الاعتقاد أو التفكير بأنّ نقطة ومركز وأصل كلامه هو نفس نقطة ومركز وأصل المسيطِر[18] »

كما ينتقد الغذامي انجرار المرأة الكاتبة وراء مصطلح "أدب إنساني" توهمّا منها أنّه يساويها بالرجل في الإبداع « غير أن الفحص التشريحي لدلالة "الإنساني" يكشف على أن كل ما هو إنساني في الثقافة هو في حقيقته ذكوري ! »[19] ؛ إذ يعد الرجل من مؤيدي مصطلح "الأدب النسوي" الذي أثار ويثير جدلا في ساحة النقد العربي طالما أنّه يمنحها التميز ويعزّز إبداع المرأة خارج نطاق قبضة الرجل على تلابيب اللغة.

لينهي المسألة –التي لا تنتهي– بتوصية ظاهرها إلى عالم الكتابة وباطنها إلى المرأة الكاتبة إذ يقول « إنّ طريق المرأة إلى موقع لغوي لن يكون إلّا عبر المحاولة الواعية نحو تأسيس قيمة إبداعية للأنوثة تضارع الفحولة وتنافسها، وتكون عبر كتابة تحمل سمات الأنثوية وتقدّمها في النص اللغوي لا على أنّها استرجال وإنّما بوصفها قيمة إبداعية تجعل الأنوثة مصطلحا إبداعيا مثلما هو مصطلح الفحولة »[20] في إشارة منه إلى أنّ المرأة وحدها من تستطيع فرض جنسها على عالم الكتابة وتقارع الرجل فيه عندما تتخلص من استرجالها في الإبداع ومن استعارتها لمصطلحات الفحولة في كتاباتها؛ إذ ليس من الضروري أن تستنجد بأوكسجين اللغة المذكر لكي تجد طريقها إلى مشارب الخطاب ومغاور التعبير.

خامسا: كيف استطاعت المرأة كسر الطوق الذكوري المضروب على اللغة؟

يرى الغذامي أنّ المرأة أدركت بعد تجربتها مع الكتابة أنّ اللغة تفرض حسّها الذكوري وضميرها المذكر على قلم المرأة مما « يجعل المرأة تكتب وتفكر وكأنّها قد استرجلت »[21] . إنّه معضل إبداعي دفع المرأة أن تحتال لكسر طوق الذكورة المضروب على اللغة عندما « راحت تستنبت موقعا – أو مواقع – للأنوثة في ذاكرة اللغة، وفي ذاكرة التاريخ والثقافة، وجاءت كتابات تحفر طريقها بهذا الاتجاه »[22] ؛ حيث استدل الغذامي على موقفه هذا بكتابات رضوى عاشور "غرناطة"، ورجاء العالم "نهر الحيوان"، وأميمة الخميس "و الضلع حين استوى"، وكتابات منيرة الغدير وسحر خليفة إذ سعت هؤلاء الكاتبات إلى احتلال اللغة وغزو مملكة الرجال بتوظيفها للجسد كقيمة إبداعية في الكتابة مثلما وظّف في البدء كقيمة ثقافية، وكذا عبر الاستثمار في المجاز، واللغة، وفي الذاكرة: بتفجيرها، باستنطاقها، وبتأنيثها.

1) الجسد بوصفه قيمة ثقافية، ثم إبداعية:

استدلّ الغذامي في هذه الجزئية بقصة "تودد" الجارية من كتاب ألف ليلة وليلة، وأسهب في سرد تفاصيل القصة بوصفها معلما تاريخيا يحيل إلى بدايات توظيف الجسد من طرف المرأة كسلاح قاهر ضد قوة الرجل المزعومة، وفي هذا يقول: « تلك هي ثقافة الجسد حسبما تقدمها حكاية "تودد" حيث توظف المرأة ممتلكاتها الطبيعية لكي تخترق أسوار الرجال وتدك حصونهم، وهي هنا قد امتلكت جسدا أنثويا لا نظير له، وكان من الممكن لهذا الجسد الخارق في جماله أن يكون مصدر ضعف بوصفه إغراء جنسيا مشاعا لأنّ صاحبته جارية، غير أنّ هذا الجسد الجميل يتحدّ مع الثقافة في أرسخ مستوياتها فيتحوّل الضعيف إلى قوة خارقة تسلب من يراها وترميه من نبل سهامها، وبذا تحقق المرأة انتصارات لا نظير لها في تاريخ الثقافات، وتكتسح الرجال وتكسر فحولتهم » [23] ؛ إذ تكتشف المرأة أنّ جسدها ليس مجرد إغراء جنسي أو بضاعة معروضة كما روّج له، وإنّما هو "قيمة ثقافية" تحمي وتحرس وتدرأ عن صاحبتها العيون الطامعة والأيدي الخبيثة؛ حيث يتولى هذا الجسد الفاتن سلب كلّ من يراه وضربه بالسهام القاتلة. إنّه التحد الذي ينسب إلى المرأة وإبداعاتها؛ عندما تخرج بواسطته عن الثقافة الذكورية ولغة الفحل.

ومثلما شكّل الجسد قيمة ثقافية في حكي شهرزاد في الأزمنة الغابرة، حافظ على قيمته ومكانته لدى المرأة عندما اقتحمت عالم الكتابة وخطت بالقلم إذ شكّل أداة فاعلة وحبلا تمسكت به هذه المخلوقة القابعة طويلا في بئر الذكورة الذي رُميت أو رمت نفسها فيه وهي الطامحة للقبض بزمام القلم والتحرر لفعل الكتابة؛ لهذا أعطت لجسدها كامل الحرية في البوح عن شهوته وتفكيك ألغامه وتفجير طاقاته، حيث وقفت عند كل قطعة منه عندما تتراقص اللهفة وتصرخ الرغبة بملاقاة الآخر متحدية جميع السلط التاريخية التي بسطت سلطانها عليها وعلى إحساسها وتعبيراتها لأزمنة طويلة؛ فتغدو « الكتابة تفجير لمكبوتات أشياء الجسد » [24]

فاجتماع الكتابة برغبة الجسد جعله يتقّد سرديا وينتج نصا أنثويا متفردا عن نصوص الرجل مشحونا ومكثفا بالإثارة واللذة، إذ عوضّت المرأة –بهذا الاختلاف– وإلى حد ما غيابها التاريخي عن عالم الكتابة.

ولم تكتف المرأة بغزو مدينة الرجل بل « نفته عن عالمها الخاص وأبعدته عن جزيرتها » [25] حيث تخلق عالمها الخاص ولغتها الأنثوية التي لا تشبه لغته.

2) معركة المرأة بين الانتصار والتعثر:

يقرّ الغذامي أنّ « المرأة تعرف الحكي، وتعوّدت عليه، وسكنت فيه، ولكنّ الكتابة عالم جديد، ووعي جديد يخرجها من المألوف إلى المجهول، ويحوّلها من حياة القناعة والتسليم والغفلة، إلى قلق السؤال وقلق الوعي بما يحيط بها وما يجري وراءها وبها. فالوعي — دائما- يقلق ويثير، وعدمه راحة؛ ومن هنا كانت كتابة المرأة انتقالا منالراحة إلى القلق » [26] ؛ في إشارة منه إلى أنّ معركة المرأة ليست بالحدث الهيّن حيث مرّت وتمرّ بمحطات انتصار تارة، وبحفر تعثر تارة أخرى، وجاء بنماذج عرفت توجها في الأدب العربي ولكنّها آلت في الأخير إلى الفشل والهزيمة أبرزها قصة مي زيادة التي صرّحت في بداياتها وقالت « ليس من الممكن أن نخرج من الظلام الحالك إلى النهار الساطع دون أن تبهرنا الأنوار فتضعضع البصائر، ولا نعود نرى الأشياء في مكانها كما هي » [27]، وهي التي بادرت إلى تأنيث المكان بإقامتها لصالون مي المشهور لتجيب على سؤالها « كيف للمرأة أن تتكلم وهي غير موجودة في الكلام؟ » [28]، إنّه السؤال الذي لم تجب عنه لأنّه غير قابل للإجابة، أو لعلّ الإجابة عنه تنطوي على خطورة أفدح من السؤال نفسه، وأفدح من الوعي الكامن خلف السؤال؛ حيث «دفعت "مي" حياتها وعقلها كإجابة أولى عن سؤال قاتل » [29]، كقربان للأدب وتاريخه! ولهذا يظل ذكرها قائما في صفحاته، ويظلّ مخلَّدا ما خطت وقالت.

ومن عثرات معركة المرأة في ميدان الكتابة جاء الغذامي بمفهوم "الاكتئاب" الذي تلبّست به بعض النصوص التي خطتها أنامل المبدعات؛ فكما ثمة علاقة بين القلم والألم ثمة علاقة وطيدة بين الكتابة والاكتئاب، تبدأ من التشابه في الجذر اللغوي وتمتد إلى الترابط شبه العضوي بين كافة أفعال الكتابة وتجلياتها، وبين الاكتئاب النفسي للذات الكاتبة؛ حيث أنّ « في حادثة المرأة والكتابة تقع المرأة الكاتبة في هذه الهوة العميقة ما بين الهوية المكتسبة والهوية المفقودة، بين الجزء المقتول من الذات والجزء الذي يحتاج إلى صراع مرير للحفاظ عليه، ولكي تكسب المرأة شيئا وتدخل في النهار الساطع لابدّ أن تخسر أشياء. وما بين الكسب والخسارة تنشأ الكتابة في علاقة جبرية مع الاكتئاب ويتلازم القلم والألم » [30] ؛ وقد استدلّ على هذا التلازم بأشعار عائشة التيمورية، ونازك الملائكة التي « تمر في صراع طويل مع الحزن ينتهي بأن تغني له » [31]، كما يعود هاهنا إلى مي زيادة التي تعترف في مقدمة ترجمتها لـ "ابتسامات ودموع" « كنت كئيبة.. كنت كئيبة لغير سبب » [32]؛ فحزن المرأة يزداد مع ازدياد وعيها، ومع نموّ تجربتها مع الكتابة، وهو « نموّ قد يوصلها إلى منعطف خطير قد يوصلها إلى الموت المفعم بحشرجة القنوط

» [33]، وقد تنتهي المرأة الكاتبة مضطربة الأعصاب مثلما انتهت مي زيادة في مستشفى للأمراض النفسية!

ولئن عدّ الاكتئاب حلية تتحلى بها الكتابة النسائية، فهو نتيجة تبدو الآن –وبعد شبه زوال الحدث– حتمية ومتوقعة؛ فقد تعرضت المرأة الكاتبة إلى محاولات تعقيمها والتقليل من شأن إبداعها. ومن وسائل الضغط التي واجهتها المرأة الكاتبة ما يلي:

« – اتهامها بأنّ رجالا يكتبون لها.

– تزهيدها في الكتابة وتخويفها منها.

– تعريضها لليأس من شباة القلم.

– إيصالها إلى حافة الجنون كما حدث لباحثة البادية ومي زيادة.

– اتهامها بالتطفل على الكتابة، وأنّ العلم والثقافة ليسا للمرأة، وأنّ كتابتها دلع » [34] .

حيث يرى الغذامي أنّها اتهامات عامة تتعرض لها كل امرأة تدخل إلى عالم اللغة الذكوري، ويتم التضييق عليها بضواغط نفسية واجتماعية لطردها من امبراطورية الرجل اللغوية.

ولم ينته الأمر عند الاكتئاب ومحاولات تعقيم المرأة، بل كثيرا ما سقطت المرأة نفسها في فخ الكتابة ضد أنوثتها؛ « فالثقافة في الفكر النسوي ذكورية، منحازة للأنا (الرجل) على حساب الآخر (المرأة)، وهو ما يحتم تعريتها والكشف عن أنساقها المضمرة المشكِّلة لها، خاصة في جانبه اللغوي » [35] ؛ إنها ورطة إبداعية مثلّ لها الغذامي في مؤلَّفه بكتابات "نوال السعداوي" و"غادة السمان" إذ تكشف عن حساسية أنثوية مفرطة وبعيدة الأغوار في عمق العلاقة بين المرأة وأنوثتها.

3) أخيرا تسترد اللغة أنوثتها... وتؤنَّث الذاكرة:

سعت المرأة الكاتبة ولا سيما في كتابتها للرواية إلى تفكيك الفحولة وتكسيرها، وبالتواطؤ مع اللغة التي « راحت تكتب نفسها، تنقش صورتها على الورق بوصفها أنثى تتكلم بلسان المرأة وتكتب بقلمها، فتسترد بذلك اللغة أنوثتها التي سرقت منها، وتتخلص من المستعمر الفحل الذي احتل المساحة، وتحكم بفعل الكتابة وفعل القراءة وفعل التأويل » [36] ؛ حيث اكتسبت المرأة مع الزمن تجربة مكّنتها من فكّ شفرات قوة الذكر في الكتابة، واخترعت لنفسها أدوات وظفتها في فعلها الكتابي لتقارع نتاج الرجل؛ وأبرز هذه الأدوات هي: المجاز، الاحتفاء باللغة من خلال التلاعب الجميل بين المباشرة والانزياح، وكتابتها عن الرجل التي أبطلت بموجبها قانون الوصاية، والأبوة، والسلطوية، وقضت على الفحولة التي

جثمت على صدر اللغة أزمنة طويلة؛ حيث مثّل الغذامي لهذه الكتابة الثائرة بروايات "أحلام مستغانمي" وبالتحديد رواية: "ذاكرة الجسد".

وأما حول مفهوم "تأنيث الذاكرة" فيظهر أنّ وصول المرأة إلى هذه الفكرة حسب الغذامي « كان نتيجة لاكتشافها المرعب في أنّ اللغة لما تزل رجلا فحلا، وإنّه لمن الجلي أنّ تأنيث اللغة أو على الأقل أنسنتها لن تتحقق إلا بعد أن تكتنز الذاكرة الثقافية بالمعنى المؤنث والأنوثة (...) وأنّ المرأة الجديدة تسير باتجاهه بوعي واضح وإبداعية واثقة »[37]. حيث أخذت المرأة جديا في محاولات تأنيث الذاكرة من خلال: تفجيرها، استنطاقها، وتأنيثها في النهاية؛ وذلك من خلال الجمال الذي تمنحه الكاتبة لنسائها في كتاباتها، مثلما تمنحهن اللغة، وتعطيهن حق الكلام والإفصاح؛ إنّه تفجير واستنطاق للذاكرة المؤنثة جمالا وبهاء ولغة، وقد مثّل لتأنيث الذاكرة في كتابة المرأة بالشخصيات الأنثوية في إبداعات: "أميمة الخميس"، "لطيفة الشعلان"، و"رضوى عاشور".

الخاتمة والنتائج:

سعى البحث إلى الكشف عن علاقة المرأة بالكتابة والتنقيب في أسرار أواصرها حسب رؤية ناقد بارز ومهم في ساحة النقد العربي هو الناقد السعودي "عبد الله الغذامي" من خلال ما أفصح عنه وشرّحه بدقة في مؤلَّفه "المرأة واللغة" الذي نال نصيبا كبيرا من ذيوع الصيت بين الأكاديميين والباحثين المهتمين في مجال كتابة المرأة.

و قد خلصت الدراسة إلى النتائج التالية:

– يرى الغذامي أن غياب المرأة عن التاريخ هو بسبب غيابها عن اللغة وكتابة الثقافة، مما فسح المجال أمام الفحولة للتفرّد باللغة، وجاء الزمن مكتوبا بالقلم المذكّر واللفظ الفحل.

– يرجع صاحب مؤلَّف "المرأة واللغة" السبب في طرد المرأة من أحضان اللغة إلى الثقافة التي سادت عقب تحوّل المجتمع من نظام الأمومة إلى النظام الأبوي، وكذا إلى النظام الرأسمالي الذي لا يرى في المرأة غير جسد يثير الرجل، يوظَّف في إعلانات الجذب والإغراء، تناسبا مع آراء العلماء والفلاسفة الذين اتهموها بالنقص والدونية، فاستأثر الرجل باللغة وأحكم قبضته عليها وسجّل التاريخ والثقافة بضمير ذكورته، وعدّ المرأة مجرّد موضوع ثقافي؛ فنتج إذّاك أن أصبح اللفظ فحلا، والمعنى مؤنثا.

– مرت المرأة — حسب الغذامي – في مسيرة فرض الذات كفاعل في تسجيل التاريخ والثقافة بمرحلتين اثنتين: مرحلة الحكي، ومرحلة الكتابة؛ حيث كانت الأولى إرهاصا ودافعا للمرحلة الثانية

التي اتسمت بالوعي والإدراك والمسؤولية التي يفرضها التاريخ على مسجلي وقائعه والشاهدين على الحضارة.

– استطاعت المرأة في كتاب "المرأة واللغة" أن تحتل اللغة وتغزو عرين الرجل عندما تمكّنت إلى حد بعيد أن تكسر طوق الرجل الذي سيّج اللغة زمنا غير يسير، وذلك بتوظيفها للجسد كقيمة ثقافية، وكذا باستثمارها في المجاز، وفي اللغة، وفي الذاكرة من خلال تفجيرها، استنطاقها وتأنيثها. ولكن مسيرتها لم تسلم من العثرات التي نبعت من نفسها ومن الآخر الذكر كالاكتئاب الذي زاول فعلها الكتابي، وكتابتها ضد أنوثتها، وكذا محاولات تعقيمها وتسفيه إبداعها.

هوامش:

[1] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، 2006، ص 11

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها

[4] ابن جني، الخصائص، ج2، تحقيق: محمّد علي النجار، دار الكتاب، بيروت، طبعة 1975، ص 415

[5] مي زيادة، كلمات وإشارات، مؤسسة نوفل، بيروت/ لبنان، طبعة 1975، ص 32

[6] بنت الشاطئ، الشاعرة العربية المعاصرة، دار المعرفة، القاهرة، طبعة 1965، ص 14

[7] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 20

[8] نازك الملائكة، محاضرات عن علي محمود طه، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، طبعة 1965، ص 190

[9] ينظر: عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 23

[*] حيث اعتمدت الشركات الاقتصادية الرأسمالية التي يديرها الرجال في الغالب على ترويج سلعها بواسطة الجسد المؤنث لجذب المستهلك المذكر، إذ اعتبرت المرأة أسيرة جسدها وما ينطبق عليه من تسليع وترويج وتعليب ليلائم الأهداف التجارية.

[10] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص26، 27

[11] المرجع نفسه ص 79

[12] نبيلة الزبير، مشروع قراءة (اللغة، الأنوثة، الكتابة)، المجلس الأعلى للثقافة، مؤتمر المرأة العربية والإبداع، أكتوبر 2002، نقلا عن: سوسن ناجي رضوان: الوعي بالكتابة في الخطاب النسائي العربي المعاصر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، دط، 2004، ص 61

[13] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 49

[14] مقابلة مع أحلام مستغانمي، مجلة "هي"، العدد 24، يوليو 1994، ص 30-32

[15] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 49

[16] هدى بركات، جريدة الرياض، عدد يوم: 1994/05/30

[17] ينظر: عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 50

[18] عبد الكبير الخطيبي، النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، د ط، د ت، ص 158

[19] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 50

[20] المرجع نفسه، ص 76

[21] المرجع نفسه، ص 105

[22] المرجع نفسه، ص 208

[23] المرجع نفسه، ص 97 -98

[24] المرجع نفسه، ص 131

[25] المرجع نفسه، ص 113

[26] المرجع نفسه، ص 132

[27] مي زيادة المؤلفات الكاملة، الجزء 1، جمع وتحقيق: سلمى الحفار الكزبري، مؤسسة نوفل، بيروت، 1982، ص 113

[28] وردت هذه العبارة مقتبسة لدى منى حلمي في مقالة لها بعنوان "تكلمي حتى أراك"، مجلة "الكاتبة"، ص 4-5، العدد 2، يناير 1994

[29] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 128

[30] المرجع نفسه، ص 135

[31] نازك الملائكة، شجرة القمر (خمس أغان للألم)، دار العالم للملايين، بيروت/ لبنان، طبعة 1968، ص 52

[32] مي زيادة، ابتسامات ودموع، منشور ضمن أعمالها الكاملة، ج2، مؤسسة نوفل، بيروت/ لبنان، 1975، ص 15

[33] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 142

[34] المرجع نفسه، ص 144

[35] فريد مناصرة، النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي (ضرورة معرفية أم موضة نقدية) دراسة في نقد النقد، مجلة المدونة، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، جامعة لونيسي علي- البليدة2- الجزائر، المجلد الخامس (العدد الأول)، جوان 2018، ص 244-243

[36] عبد الله الغذامي، المرأة واللغة، مرجع سابق، ص 181

[37] المرجع نفسه، ص 207